المجموعة التاريخية للصغار

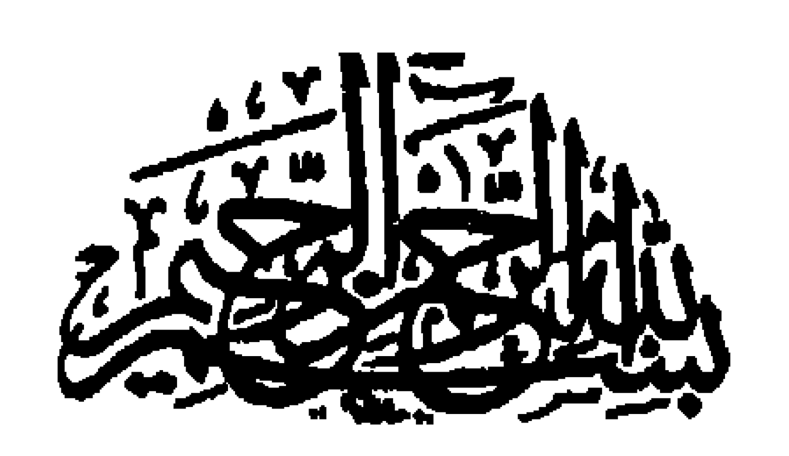
عجائب رحلة ابن بطوطة

الطريقُ إلى الغارِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب :78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

الطَّرِيقُ إِلَىٰ الغَارِ

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ فِي خِطَابِ السُّلْطَانِ فَارِسِ بْنِ عَلِيٍّ المُكَنَّىٰ بِأَبِي عِنَانٍ ، وَقَدْ انْعَقَدَ مَجْلِسُ الثَّلَاثَةِ بِوُجُودِ مُحَمَّدِ ابْنِ جُزَيٍّ الكَاتِبِ :

ـ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَوْلَايَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ أَنَّ مَدِينَةَ مَكَّةَ حَرَسَهَا الله وَمَا حَوْلَهَا ، كَانَتْ بِقِيعَانِهَا وَسُهُولِهَا . وَنُجُودِهَا مَوَاطِىءَ أَقْدَامِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله الهَاشِمِيِّ القُرَشِيِّ ﷺ .

وَلَابُدَّ لِي يَا مَوْلَايَ مِنَ التَّعرِيجِ عَلَىٰ ذِكْرِ الجِبَالِ المُطِيفَةِ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ أَرْوِيَ لَكَ الحَدِيثَ العَجِيبَ ، وَمَا جَرَىٰ لِاثْنَيْنِ مِنْ أَصْحَابِي كَانَا فِي طَرِيقِهِمَا إِلَىٰ غَارِ ثَوْرٍ .

مِنَ الجِبَالِ المُطِيفَةِ بِمَكَّةَ فِي جِهَةِ الجَنُوبِ وَالشَّرْقِ جَبَلُ أَبِي قُبَيْسٍ ، وَهُوَ أَحَدُ الأَخْشَبَيْنِ وَأَدْنَىٰ الجِبَالِ مِنْ مَكَّةَ ، شَرَّفَهَا الله ، وَيُقَابِلُ رُكْنَ

الحَجَرِ الأَسْوَدِ ، وَبِأَعْلاَهُ مَسْجِدٌ وَأَثَرُ رِبَاطٍ وَعِمَارَةٍ ، وَإِطْلاَلُ أَبِي قُبَيْسٍ عَلَىٰ الحَرَمِ الشَّرِيفِ وَعَلَىٰ جَمِيعِ البَلَدِ ، وَمِنْهُ يَظْهَرُ حُسْنُ مَكَّةَ المَصُونُ مِنَ الرَّحْمَنِ ، وَيَظْهَرُ جَمَالُ الحَرَمِ وَاتِّسَاعَهُ وَفِي وَسَطِهِ الكَعْبَةُ المُعَظَّمَةُ مِنَ الله تَعْظِيماً جَعَلَهَا بِهِ قِبْلَةً لِلصَّلاَةِ أَيْنَمَا أُقِيمَتْ صَلاةٌ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ . وَيُذْكَرُ أَنَّ جَبَلَ أَبِي قُبَيْسٍ هُوَ أَوَّلُ جَبَلٍ خَلَقَهُ الله تَعَالَىٰ ، وَفِي جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ مَوْضِعُ مَوْقِفِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ انشَقَّ لَهُ القَمَرُ . وَمِنَ الجِبَالِ التِي حَظِيَ كُلٌّ مِنْهَا بِخَبَرٍ وَأَثَرٍ ، جِبَالُ قُعَيْقِعَانٍ ، وَجَبَلُ الطَّيْرِ وَجَبَلُ الخَنْدَمَةِ ، وَلاَ تُضَارِعُ شُهْرَتُهَا شُهْرَةَ جَبَلِ حِرَاءَ .

أَمَّا جَبَلُ حِرَاءَ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ مِنْ مَكَّةَ فَهُوَ عَلَىٰ بُعْدِ فَرْسَخٍ مِنْهَا ، وَهُوَ مُشْرِفٌ عَلَىٰ مِنَىٰ ، ذَاهِبٌ فِي الهَوَاءِ عُلُوّاً ، وَاشْتُهِرَ بِأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ كَثِيراً قَبْلَ البِعْثَةِ ، وَفِيهِ أَتَاهُ الحَقُّ وَبَدَأَ الوَحْيُ ، وَهُوَ الذِي اهْتَزَّ تَحْتَ قَدَمَيْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ لَهُ : « **اثْبُتْ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ** » وَفِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ مِنْ ضِمْنِ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ ﷺ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ هَلْ لَكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ أَنْ تُطْرِفَنِي بِحَدِيثٍ عَجِيبٍ يَكُونُ لَنَا مَسْلاةً فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ سَنُدْلِفُ إِلَىٰ الحِكَايَةِ العَجِيبَةِ التِي جَرَتْ لِصَاحِبَيَّ المُجَاوِرَيْنِ بِالحَرَمِ الشَّرِيفِ ، وَقَدْ وَقَعَتْ لَهُمَا فِي جَبَلِ ثَوْرٍ وَمَغَارَتِهِ التِي كَانَتْ مَأْوَىٰ الرَّسُولِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ غَدَاةَ الهِجْرَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ . وَقَدْ وَضَعْتُ فِي حِسَابِي بَلْ وَضَعْتُ فِي هَمِّي أَنْ تَكُونَ يَا مَوْلاَيَ مَسْرُوراً بِطَرَافَةِ الحَدِيثِ وَمَا فِيهِ مِنَ العَجَائِبِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ دُونَكَ مَا تُرِيدُ ، وَلاَ تَنْسَ أَنَّ كَاتِبَنَا ابْنَ جُزَيٍّ يَتَسَقَّطُ وَيَتَلَقَّطُ مِنْ فَمِكَ خِيرَةَ مَا يُدَوِّنُهُ القَلَمُ فِي سِجِلٍّ سَيُذْكَرُ لَكَ فَضْلُ إِمْلاَئِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ . . وَاسْتَرْسَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ جَبَلُ ثَوْرٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ قَدْرِ فَرْسَخٍ مِنْ مَكَّةَ ، عَلَىٰ طَرِيقِ اليَمَنِ ،

فِيهِ الغَارُ الذِي اشْتَهَرَ بِاسْمِهِ ثَوْرٍ ، وَهُوَ الذِي آوَىٰ الرَّسُولَ مُحَمَّداً وَصَاحِبَهُ بِنِدَاءٍ عَجِيبٍ : (إِلَيَّ ، إِلَيَّ يَا مُحَمَّدُ ، فَقَدْ آوَيْتُ قَبْلَكَ سَبْعِينَ نَبِيًّا . .) .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ أَلَيْسَ هُوَ الغَارُ الذِي نَسَجَتْ عَلَىٰ مَدْخَلِهِ العَنْكَبُوتُ ، وَعَشَّشَتْ الحَمَامَةُ وَفَرَّخَتْ ؟ .

ـ بَلَىٰ ، يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ المُشْرِكِينَ الذِينَ كَانُوا فِي إِثْرِ رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبِهِ حِينَ انْتَهَوْا إِلَىٰ الغَارِ وَمَعَهُمْ قُصَّاصُ الأَثَرِ وَرَأَوْا العَنْكَبُوتَ قَدْ نَسَجَتْ عَلَىٰ فُوَّهَةِ الغَارِ ، وَالحَمَامَةَ مُفَرِّخَة ، حَارُوا فِي أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ مَا لَبِثُوا أَنْ قَالُوا : مَا دَخَلَ أَحَدٌ هُنَا ، وَانْصَرَفُوا حَانِقِينَ لِخَيْبَتِهِمْ . فَقَالَ الصِّدِّيقُ لِصَاحِبِهِ ﷺ : يَا رَسُولَ الله ، لَوْ وَلَجُوا عَلَيْنَا مِنْ فَمِ الغَارِ مِنْ هُنَا ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : كُنَّا نَخْرُجُ مِنْ هُنَا ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ المُبَارَكَةِ إِلَىٰ الجَانِبِ الآخَرِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بَابٌ ، فَانْفَتَحَ فِيهِ بَابٌ لِتَوِّهِ وَلَحْظَتِهِ ، وَذَلِكَ بِقُدْرَةِ المَلِكِ القَادِرِ الوَهَّابِ جَلَّ جَلَالُهُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُثْنِياً عَلَىٰ مُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ لا عَدِمْتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله ، نَدِيماً وَمُحَدِّثاً ، وَالآنَ أَلاَ تَشْتَهِي بَعْضَ النُّقُولِ وَالفَاكِهَةِ ؟ !

صَفَّقَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِيَدَيْهِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الحَاجِبُ فَأَسَرَّ فِي أُذُنِهِ بِأَمْرِهِ ، وَجَاءَ الخَدَمُ فَبَسَطُوا قُدَّامَ السُّلْطَانِ وَنَدِيمِهِ وَكَاتِبِهِ مَالَذَّ وَطَابَ مِنَ النُّقُولِ وَالفَاكِهَةِ مَعَ أَبَارِيقَ فِيهَا شَرَابٌ مُحَلَّىٰ ، وَكُؤُوسٌ مُتْرَعَةٌ كَانَتْ بِهَا فُرْصَةٌ لِلاسْتِرَاحَةِ وَالتِقَاطِ الأَنْفَاسِ .

بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ سَأَلَ السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ مَا خَبَرُ ذَلِكَ الغَارِ غَارِ ثَوْرٍ ؟ أَوْ بِالأَحْرَىٰ مَا خَبَرُكَ مَعَهُ ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ بَعْضاً ،بَلْ إِنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الزُّوَّارِ وَالحَجِيجِ يَقْصِدُونَ زِيَارَةَ هَذَا الغَارِ المُبَارَكِ ، وَيَرُومُونَ دُخُولَهُ مِنَ البَابِ الذِي دَخَلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ابْتِغَاءَ لِلبَرَكَةِ . وَلِهَذَا الغَارِ المُبَارَكِ سِرٌّ عَظِيمٌ يُدْرِكُهُ المُفْلِحُونَ المُهْتَدُونَ مِنَ الأُمَّةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَهَلْ اطَّلَعْتَ عَلَىٰ هَذَاالسِّرِّ ، أَوْ أَدْرَكْتَهُ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ؟ !

ـ العِلْمُ عِنْدَالله يَامَوْلاَيَ ، أَنَّ بِدُخُولِ الغَارِ وَإِمْكَانِ الوُصُولِ إِلَىٰ جَوْفِهِ اخْتِبَاراً مِنَ الله لإِخْلاَصِ عِبَادِهِ وَتَقْوَاهُم . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ !

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ حَدَّثَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الدِّيَارِ فِيمَاحَوْلَ الغَارِ المُبَارَكِ أَنَّ الغَارَ لايَتَمَكَّنُ مِنْ دُخُولِهِ إِلاَّ الصَّالِحُونَ المَرْضِيُّونَ ، فَإِذَا كَانَ قَاصِدُ الدُّخُولِ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ المَعَاصِي وَمُرْتَكِبِي الكَبَائِرِ ضَاقَ بِهِ مُدْخَلُهُ وَأَشْرَفَ عَلَىٰ الهَلاَكِ ، وَكَأَنَّهُ وَاقِعٌ بَيْنَ فَكَّيْنِ مِنَ الصَّخْرِ حَتَّىٰ يُنْقِذَهُ مُنْقِذٌ وَيَسْحَبَ بَدَنَهُ مِنْ بَيْنِ مَطْبِقَيْهِ . أَمَّا إِنْ كَانَ القَاصِدُ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ وَالصَّلاَحِ ، وَمِمَّنْ لَمْ يُسْرِفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم فَيَكُونُ دُخُولُهُ إِلَىٰ جَوْفِ الغَارِ مَيْسُوراً بِإِذْنِ الله . وَلِهَذَا يَتَحَامَىٰ الكَثِيرُونَ مُحَاوَلَةَ الدُّخُولِ خَشْيَةَ مَاهُوَ مُخْجِلٌ

فَاضِحٌ مِنَ الامْتِحَانِ . وَقَدْ مَالَ الكَثِيرُونَ مِنْ قَاصِدِي الغَارِ إِلَىٰ تَجَنُّبِ مُحَاوَلَةِ دُخُولِهِ وَاكْتَفُوا بِالصَّلاةِ أَمَامَهُ ، وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ الله تَقَرُّباً بِبَرَكَةِ المَأْوَىٰ الشَّرِيفِ .

هُنَا ، قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ مُدْلِياً بِمَا يَعْلَمُهُ :

ـ أَخْبَرَنِي بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ الحُجَّاجِ الأَكْيَاسِ أَنَّ سَبَبَ صُعُوبَةِ الدُّخُولِ إِلَىٰ الغَارِ أَنَّ بِدَاخِلِهِ مِمَّا يَلِي الفُوَّهَةَ حَجَراً كَبِيراً مُعْتَرِضاً ، فَمَنْ دَخَلَ مِنْ ذَلِكَ الشِّقِّ وَهُوَ مُنْبَطِحٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ صَدَمَهُ الحَجَرُ المُعْتَرِضُ فَلاَ يُمْكِنُهُ الدُّخُولُ . أَمَّا مَنْ يُحَاوِلُ الدُّخُولَ إِلَىٰ الغَارِ مُسْتَلْقِياً عَلَىٰ ظَهَرِهِ فَإِنَّهُ إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ الحَجَرِ المُعْتَرِضِ رَفَعَ رَأْسَهُ وَاسْتَوَىٰ قَاعِداً ، وَكَانَ ظَهْرُهُ مُسْتَنِداً إِلَىٰ الحَجَرِ المُعْتَرِضِ وَأَوْسَطُهُ فِي الشِّقِّ ، وَرِجْلاَهُ مِنْ خَارِجِ الغَارِ مَايَزَالُ يَسْحَبُهُمَا رُوَيْداً رُوَيْداً حَتَّىٰ يَنْتَصِبَ قَائِماً بِدَاخِلِ الغَارِ . وَتِلْكَ المُحَاوَلَةُ فِي مُجْمَلِهَا مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ لاَيَبْذُلُهَا مِنْ نَفْسِهِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حِكَايَةُ فَمِ الغَارِ المُبَارَكِ وَانْقِبَاضِ فَكَّيْهِ بِالصَّخْرِ عَلَىٰ دَاخِلِهِ ، حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ حَقّاً ، وَلَكِنَّ ابْنَ بَطُّوطَةَ كَانَ قَدْ وَعَدَنَا بِمَا هُوَ أَعْجَبُ ، فَمَا رَأْيُكَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ؟ !

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَقَدْ وَجَدَ حَافِزاً لِلكَلامِ :

ـ أَنَا عِنْدَ وَعْدِي يَامَوْلَايَ السُّلْطَانِ ، وَأَقْصَىٰ مُرَادِي أَنْ أُحَدِّثَكَ بِمَاهُوَ طَرِيفٌ وَشَائِقٌ وَعَجِيبٌ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

أُحَدِّثُكَ يَا مَوْلَايَ بِمَاجَرَىٰ لاثْنَيْنِ مِنْ أَصْحَابِي قَصَدَا غَارَ ثَوْرٍ ، فِي حِينِ مُجَاوَرَتِهِمَا لِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَىٰ . . هُمَا الفَقِيهُ عَبْدُ اللهِ التُّوزَرِيُّ ، وَأَخُوهُ فِي الدِّينِ وَالإِيمَانِ أَحْمَدُ الأَنْدَلُسِيُّ وَدَعْنِي يَا مَوْلَايَ أُكَنِّي الأَوَّلَ بِأَبِي مُحَمَّدٍ وَالثَّانِي بِأَبِي العَبَّاسِ . . خَرَجَ الاثْنَانِ

مِنْ مَكَّةَ مُنْفَرِدَيْنِ وَلَمْ يَسْتَصْحِبَا دَلِيلاً عَارِفاً بِطَرِيقِ الغَارِ ، وَتَشَابَهَتْ عَلَيْهِمَا الشِّعَابُ الجَبَلِيَّةُ وَالطُّرُقُ فَتَاهَا وَضَلاّ سَبِيلَهُمَا ، وَسَلَكَا طَرِيقاً مُنْقَطِعَةً مُوحِشَةً ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَانِ اشْتِدَادِ الحَرِّ وَحَمَارَّةِ القَيْظِ .

وَمَازَالا يَتَقَدَّمَانِ فِي الطَّرِيقِ التَّائِهِ ، وَكَانَ قَدْ نَفِدَ مَاعِنْدَهُمَا مِنَ المَاءِ وَهُمَا لَمْ يَصِلا إِلَىٰ الغَارِ ، فَلَمَّا أَدْرَكَا بَعْدَ لأْيٍ بُعْدَهُمَا عَنْ الطَّرِيقِ المُفْضِي إِلَىٰ مَقْصِدِهِمَا أَخَذَا فِي الرُّجُوعِ إِلَىٰ مَكَّةَ . وَاجْتَهَدَا فِي أَنْ يَعْجَلا بِالوُصُولِ إِلَىٰ حَيْثُ خَرَجَا . فَوَجَدَا طَرِيقاً آخَرَ فَاتَّبَعَاهُ فَإِذَا بِهِ يُفْضِي إِلَىٰ جَبَلٍ آخَرَ لَيْسَ بِجَبَلِ ثَوْرٍ ، وَلَيْسَ لَهُمَا بِهِ سَابِقُ مَطَافٍ . وَاشْتَدَّ بِهِمَاالحَرُّ وَأَجْهَدَهُمَا المَسِيرُ مَعَ العَطَشِ وَالمُكَابَدَةِ ، وَرَأَيَا الهَلاكَ نُصْبَ العُيُونِ ، يُلَوِّحُ نَذِيرُهُ بِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ . .

عَجِزَ أَبُو مُحَمَّدٍ الفَقِيهُ التَّوزَرِيُّ عَنْ المَشْيِ إِطْلاقاً فَارْتَمَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ لاهِثاً . أَمَّا أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ الأَنْدَلُسِيُّ فَقَدْ كَانَ فِيهِ مِنَ القُوَّةِ بَعْضُ بَقِيَّةٍ فَاسْتَمَرَّ بِالمَسِيرِ بَيْنَ الجِبَالِ وَشِعَابِهَا حَتَّىٰ قَادَتْهُ خُطَاهُ إِلَىٰ أَجْيَادَ مِنْ مَدَاخِلِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وَاهْتَدَىٰ إِلَىٰ مَنْزِلِي بِالقُرْبِ مِنْ بَابِ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَصَدَنِي وَأَعْلَمَنِي بِهَذِهِ الحَادِثَةِ ، وَبِأَنَّهُ خَلَّفَ صَاحِبَهُ أَبَا

مُحَمَّدٍ التَّوزَرِيَّ عُرْضَةً لِلهَلاكِ فِي مَكَانٍ مَجْهُولٍ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ وَشِعَابِهَا . كَانَ وُصُولُ أَبِي العَبَّاسِ إِلَىٰ مَنْزِلِي آخِرَ النَّهَارِ ، وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَسْعَىٰ حَثِيثاً لإِنْقَاذِ حَيَاةِ الفَقِيهِ الضَّائِعِ صَاحِبِي وَصَاحِبِه . .

قَال السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ وَقَدْ بَدَا مُتَلَهِّفاً لِسَمَاعِ بَقِيَّةِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ :

ـ وَهَلْ وَجَدْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ وَسِيلَةً ؟ حَدِّثْنِي بِمَا جَرَىٰ لِلرَّجُلِ المِسْكِينِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كُنْتُ أَعْلَمُ يَا مَوْلايَ أَنَّ لأَبِي مُحَمَّدٍ التَّوْزَرِيِّ طَرِيحِ الفَلاةِ الضَّائِعِ ابْنَ عَمٍّ اسْمُهُ حَسَنٌ . وَهُوَ مِنْ سُكَّانِ وَادِي نَخْلَةَ ، وَاتَّفَقَ وُجُودُهُ بِمَكَّةَ ، وَكُنْتُ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمَكَانِ وُجُودِهِ فَقَصَدْتُهُ بِلا إِبْطَاءٍ وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا جَرَىٰ لابْنِ عَمِّهِ . وَاسْتَهْدَيْنَا غَيْرَنَا فَدَلُّونَا عَلَىٰ الاسْتِنْجَادِ بِالإِمَامِ المَالِكِيِّ خَلِيلٍ فَنَفَعَنَا اللهُ بِهِ وَأَعْلَمْنَاهُ بِالخَبَرِ ، فَبَعَثَ مَعَنَا جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، كَانُوا عَارِفِينَ بِتِلْكَ الجِبَالِ وَالشِّعَابِ المُتَشَابِهَةِ المُضِلَّةِ لِغَيْرِ خَبِيرٍ . .

وَسِرْنَا فِي طَلَبِ الفَقِيهِ الضَّائِعِ وَنَحْنُ بَيْنَ يَأْسٍ وَرَجَاءٍ . .

سَأَلَ السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ بِلَهْفَةٍ وَاهْتِمَامٍ :

ـ وَبَعْدُ ؟ مَاذَا جَرَىٰ ؟ . .

تَابَعَ ابْنُ بَطُّوطَةَ حَدِيثَهُ قَائِلاً :

ـ لَقَدْ نَجَّاهُ اللهُ . . وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَىٰ أَيْدِينَا . .

قَالَ السُّلطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِمَزِيدٍ مِنَ اللَّهْفَةِ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ عُدْتُ أَنَا وَابْنُ عَمٍّ أَبِي مُحَمَّدٍ التَّوزَرِيّ حَسَنٌ ، وَالأدِلاءُ المَكِّيُّونَ بِلا طَائِلٍ ، وَقَدْ نَفَضْنَا الأَكُفَّ مِنْ رَجَاءِ العُثُورِ عَلَىٰ الشَّيْخِ الفَقِيهِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ ، وَذَهَبَ بِنَا الظَّنُّ مَذَاهِبَ شَتَّىٰ ، وَرَجَّحْنَا أَنْ يَكُونَ قَدْ افْتَرَسَهُ وَحْشٌ مِنْ وُحُوشِ الفَلاةِ ، وَمَضَىٰ بِجُثَّتِهِ بَعِيداً جِدّاً . وَلَكِنْ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ ، وَقَدْ نَفِدَ صَبْرُهُ شَوْقاً إِلَىٰ سَمَاعِ حِكَايَةِ الفَقِيهِ الضَّائِعِ فِي طَرِيقِ الغَارِ ، كَيفَ نَجَا بِأُعْجُوبَةٍ ، قَالَ :

ـ مَا تِلْكَ لَكِنْ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ؟ مَا تِلْكَ لَكِنْ ؟ أَخْبِرْنِي عَنْ مَصِيرِ الفَقِيهِ

الضَّائِعِ ، لَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّهُ نَجَا ، فَقُلْ لِي كَيْفَ كَانَتْ نَجَاتُهُ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ حَدَّثَنِي الشَّيْخُ الفَقِيهُ الضَّائِعُ الذِي كَتَبَ لَهُ خَالِقُهُ حَيَاةً جَدِيدَةً ، قَالَ :

لَمَّا فَارَقَنِي رَفِيقِي أَبُو العَبَّاسِ ، وَخَلَّفَنِي فِي البَرِّيَّةِ وَحِيداً مُنْفَرِداً طَفِقْتُ أَزْحَفُ بِجَسَدِي حَتَّىٰ لَجَأْتُ إِلَىٰ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ أَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا . . وَأَقَمْتُ عَلَىٰ حَالَةٍ مِنَ الجُهْدِ وَالعَطَشِ وَالغُرْبَانُ تَطُوفُ وَتُحَوِّمُ مِنْ حَوْلِي وَفَوْقَ رَأْسِي ، وَكَأَنَّهَا تَنْتَظِرُ مَوْتِيَ القَرِيبَ الذِي لاشَكَّ فيهِ . فَلَمَّا انْصَرَمَ النَّهَارُ وَحَلَّ اللَيْلُ وَجَدْتُ فِي نَفْسِي بَعْضَ القُوَّةِ وَالمُقَاوَمَةِ ، وَأَنْعَشَنِي بَرْدُ اللَيْلِ ، وَمَا زِلْتُ إِلَىٰ وَقْتِ البُكُورِ وَطُلُوعِ الصَّبَاحِ فَقُمْتُ عَلَىٰ قَدَمَيَّ ، وَنَزَلْتُ إِلَىٰ بَطْنِ وَادٍ حَجَبتِ الجِبَالُ عَنْهُ الشَّمْسَ ، مَشَيْتُ مَشْياً كَلِيلاً مُتَعَثِّراً إِلَىٰ أَنْ بَدَتْ لِي مِنْ بَعِيدٍ دَابَّةٌ سَارِحَةٌ ، فَتَوَجَّهْتُ إِلَيْها بِمَا تَبَقَّىٰ لَدَيَّ مِنْ عَزْمٍ ، فَوَجَدْتُ بِقُرْبِهَا خَيْمَةً لِلعَرَبِ ، وَخَانَتْنِي قِوَايَ عِنْدَهَا ، فَوَقَعْتُ عَلَىٰ الأَرْضِ لا أَسْتَطِيعُ النُّهُوضَ . . رَأَتْنِي المَرْأَةُ

صَاحِبَةُ الخَيْمَةِ ، وَكَانَ زَوْجُهَا قَدْ ذَهَبَ إِلَىٰ وِرْدِ المَاءِ عَلَىٰ مَسَافَةٍ ، فَأَسْرَعَتْ إِلَىٰ نَجْدَتِي وَسَقَتْنِي مَا كَانَ عِنْدَهَا مِنْ مَاءٍ فَلَمْ يَرْوِنِي . وَجَاءَ زَوْجُهَا بِقُرْبَتِهِ فَسَقَانِي مَافِي القُرْبَةِ مِنْ مَاءٍ فَلَمْ أَرْتَوِ . . وَعَرَفَ مِنِّي الرَّجُلُ أَنَّنِي مِنَ المُجَاوِرِينَ لِمَكَّةَ المُكَرَّمَةَ فَاحْتَمَلَنِي عَلَىٰ ظَهْرِ حِمَارٍ وَقَدِمَ بِي إِلَيْهَا ، وَكَانَ وُصُولُنَا وَقْتَ صَلاةِ العَصْرِ مِنَ اليَوْمِ التَّالِي لِخُرُوجِنَا . . وَقَدْ دَهِشَ كُلُّ مَنْ رَآنِي مِمَّن يَعْرِفُنِي وَحَسِبُونِي قَدْ قُمْتُ مِنْ قَبْرِي بَعْدَ مَوْتٍ . وَلاشَكَّ أَنَّ نَجَاتِي مِنَ المَوْتِ كَانَتْ بِقَدَرٍ مَكْتُوبٍ ، وَالفَضْلُ كُلُّهُ فَضْلُ اللهِ ، لَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ . .

فَرَغَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ رِوَايَةِ حِكَايَتِهِ العَجِيبَةِ ، فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ الفَاسِيِّ فَسَادَتْ فِي قَاعَةِ العَرْشِ فَتْرَةٌ مِنَ الصَّمْتِ وَالسُّكُونِ ، مَا لَبِثَ بَعْدَهَاأَنْ تَفَجَّرَ صَوْتُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ بِالإِعْجَابِ وَالثَّنَاءِ :

ـ لا فُضَّ فُوكَ . . لافُضَّ فُوكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ، يَابْنَ بُطّوطَةَ . . إِنَّ حِكَايَةَ الطَّرِيقِ إِلَىٰ الغَارِ حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ ، وَفِيهَا شَاهِدٌ وَدَلِيلٌ عَلَىٰ مَا

يُكَابِدُهُ المُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاعَةِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَىٰ الله ، وَلاشَكَّ أَنَّ قُـدْوَتَنَـاالمُثْلَـىٰ فِـي ذَلِـكَ هُـوَ رَسُـولُ الله مُحَمَّـدُ بْـنُ عَبْـدِالله ﷺ ، وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ اللذَانِ اتَّخَذَا طَرِيقَهُمَا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ لَيْسَ إِلَىٰ الغَارِ الذِي هُوَ بِجِوَارِ مَكَّةَ ، بَلْ إِلَىٰ يَثْرِبَ التِي هِيَ عَلَىٰ مَسَافَاتٍ وَأَبْعَادٍ ، وَالتِي عُرِفَتْ فِيمَا بَعْدُ بِمَدِينَةِ الرَّسُولِ ، المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ بِحُلُولِهِ فِيهَا ﷺ .

وَانْفَضَّ الجَمْعُ رَاضِياً عَمَّادَارَ مِنْ خَبَرِ التَّائِهِيْنَ فِي طَرِيقِ الغَارِ وَنَجَاتِهِمَا بِأُعْجُوبَةٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆